



الباب التمهيدي
معجم المصطلحيات فى العربية
(نشأتها وتراثها)

الفصل الأول معاجم المصطلحيات عند العرب (نشأتها وتاريخ التأليف فيها)

إن مراجعة مؤلفات النظرية اللغوية عند العرب توفقنا على مدى فطنتهم لواحد من أهم أسباب ظهور اللغة الاصطلاحية في تاريخ العربية وبنية مدونتها اللغوية (lexicon)، ألا وهو السبب الإسلامي الذي عنون له ابن فارس في كتابه (الصاحبي) في فقه اللغة بقوله: الأسباب الإسلامية؛ يقول فيه: "كانت العرب في جاهليتها على إرث آبائهم في لغاتهم، فلما جاء الله - جل ثناؤه - بالإسلام، نقلت من اللغة ألفاظ عن مواضع إلى مواضع آخر، بزيادات زيدت وشرائع شرعت وشرائع شرطت" (1).

ففي هذا النص الموجز يقرر ابن فارس أن الإسلام هو الذي أحدث هذه النقلة النوعية الجبارة في تاريخ الألفاظ العربية، وهو المسئول الحقيقي الأول عن الانتقال بكثير من ألفاظ اللغة من مواضع إلى مواضع، على حد تعبير الصاحبي فيما نقل سابقاً.

وإذا كانت مصطلحات علوم، من مثل علم الفقه وعلم أصول الفقه قد نص في نشأتها على التأثير المباشر للإسلام في أمر وجودها وقيامتها - فإن ذلك النص والتصريح في شأن مصطلحات بقية العلوم التي شهدتها منظومة المعارف في الحضارة العربية، كان حاضراً لم يغيب عن ذهن فقهاء اللغة العربية قديماً. يقول ابن فارس إن الإسلام أوجد لكل لفظ من الألفاظ التي اعتمدها العلوم الإسلامية العربية - بجوار معناها اللغوي - معنى آخر أحدثه الإسلام وجاء به، ويمثل على ذلك بألفاظ كثيرة مما انتخبه علم الفقه، منها قوله: "فالوجه في هذا إذا سئل الإنسان عنه أن يقول في الصلاة اسمان؛ لغوي وشرعي". ويذكر ما كانت العرب تعرفه، ثم ما جاء الإسلام به (2)، ثم يعقب بعد ذلك مباشرة فيقول: "وهو قياس ما تركنا ذكره من سائر العلوم؛ كالنحو والعروض والشعر، كل ذلك له اسمان؛ لغوي وصناعي" (3).

(1) الصاحبي (صقر) 78، وانظر: تراث المعاجم الفقهية 13 وما بعدها، والمعاجم الأصولية العربية 17، وما بعدها.

(2) الصاحبي (صقر) 86.

(3) الصاحبي (صقر) 86.

وكلمة "الصناعى" هذه التى وردت فى نهاية النقل السابق، هى المعنى المباشر لما يسمى ببنية علم ما. واستخدام لفظ "الصناعى" غير مستغرب من أكثر من جانب، لعل أهمها أنه مصطلح له توجهه فى مصطلحات المعجم، ومن جانب آخر لا يصح أن يراد "بالصناعة" ذلك المعنى الضيق المقصود من هذا اللفظ بصفة عامة فى البلاد الإسلامية، وإنما يقصد بها كل الفنون والمهن والقدرات وتطبيقات العلوم التى تدخل فى مفهوم الصناعة⁽¹⁾، وعلى هذا ينبغى أن تحمل هذه اللفظة فى كلام ابن فارس.

استقر إذن القول على أنه لولا الإسلام لما ظهرت منظومة المصطلحات العربية، وهو الأمر الذى يعضده السيوطى عندما ساق ما سبق أن قرره ابن فارس نقلاً عنه، وهو يقرر ما يشبه القانون العام الحاكم فى هذا السياق أنه: "كانت حدثت فى صدر الإسلام أسماء"⁽²⁾.

ثم يضيف شيئاً آخر عندما يقرر أن أسماء كانت فزالت بزوال معانيها؛ أى أنها لما أبطلها الإسلام صارت بهذه الدلالات المبطله تاريخياً ميتاً.

كل ذلك الذى يقرره فقهاء العربية من ابن فارس إلى السيوطى مرجع الفضل فيه كامن فى مجيء الإسلام⁽³⁾.

كان هذا هو الخيط الأول فى التماس نشأة معاجم المصطلحات العربية وظهورها. وهو صالح فى الوقت نفسه لتفسير ما تراكم من ألفاظ اصطلاحية موروثه؛ أى منحدره من الثروة اللفظية العربية.

غير أن ثمة طائفة كبيرة من الألفاظ الاصطلاحية - ولاسيما فى بنية العلوم الحكيمية المقابلة للعلوم العربية والشرعية - لم تنحدر من الموروث اللفظى العربى، وإنما انحدرت عن طريق الاقتراض، أو الاستعارة من المدونات اللفظية للغات أجنبية أخرى.

وهو الأمر الذى يجبرنا إلى الحديث عن أثر احتكاك العربية باللغات الأخرى، ولاسيما بعد نشاط المترجمين.

(1) مشكلة الثقافة 88.

(2) المزهرة 296/1، وانظر الزينة فى الكلمات الإسلامية، 128.

(3) وهذا الذى يقرره فقهاء العربية القدماء يقرره فقهاؤها ودارسوها المعاصرون. انظر اللغة كائن حتى 36، ونحو وعى لغوى 108، والعربية لغة العلوم والتقنية 64، وفقه اللغة للدكتور على عبد الواحد 119، واللسان والإنسان 46، والكلمة دراسة معجمية 117، وتراث المعاجم الفقهية 250، والمعاجم الأصولية فى العربية 257، ودلالة الألفاظ 145، وغيرهم كثيرون.

ويمكن رد الفضل في ذلك إلى الإسلام، وإن بطريق غير مباشر، يقول الدكتور محمد حسن عبد العزيز في كتابه: المصطلح العلمي عند العرب: تاريخه/ مصادره/ ونظريته: "وما كاد الإسلام يتجاوز شبه الجزيرة العربية حتى أقام دولة عظيمة مترامية الأطراف، ضمت أمماً وشعوباً شتى، واقتضت سياسته في الحكم والإدارة، واختلاط العرب بهذه الأمم والشعوب، وتعرفهم على ثقافتها وعلومها- إنشاء علوم لم يعهدوها من قبل" (1)، فنقلوا كثيراً من هذه العلوم عن طريق الترجمة والتعريب بآلاتها، ألا وهي المصطلحات.

لقد تضافرت النزعتان؛ الداخلية، المتمثلة فيما نقله الإسلام وتطور به من ألفاظ، والخارجية فيما نقله الإسلام واقتضيه من علوم الأمم المجاورة. لقد كانت نهضة العرب العلمية إذاً أثراً من آثار الإسلام، وعلى أية حال، كانت- من ناحية- نهضة علمية لها مقوماتها الذاتية وبواعثها الخاصة، نلمح ذلك في نشأة ما سماه الخوارزمي علوم الشريعة، وكانت- من ناحية أخرى- أثراً من آثار الشعوب التي سبقتهم إلى العلوم والصناعات؛ كاليونان والهند والفرس، ونلمح ذلك في نشأة ما سماه الخوارزمي بعلوم العجم (2).

وهاتان الطريقتان اللتان أمدتا اللغة الاصطلاحية في العربية بوافر من عطائهما- ظاهرتان في كلام الخوارزمي الكاتب (ت 378هـ) صاحب أول معجم للمصطلحات في تاريخ التأليف المعجمي عند العرب، حيث كانت- كما يقرر في عبارة واضحة- "أكثر هذه الأوضاع (المصطلحات) أسامي وألقاباً اخترعت، وألفاظاً من كلام العرب أعربت" (3).

وهاتان الطريقتان تنفرعان أو يتفرع بعضهما عن طرق أخرى فرعية، تعمل على إنهاء اللغة الاصطلاحية؛ ولذلك فإن تعبير الخوارزمي بالفعل (اخترعت) جاء موفقاً للغاية، ليشمل النقل من دلالة إلى أخرى (shift)، أو نقلاً عن طرق التبديل الوظيفي (conversion)، أو عن طريق الوضع (coinage) بالنحت أو بغيره.

وهذه الطرق الاختراعية أو الاقتراضية هي الطرق التي ينص عليها علماء اللغة في باب الحديث عن إنهاء اللغات لمعاجمها، وهذا الذي نستنبطه من كلام مفاتيح العلوم- يقرره إيفلين هاتش وتشيرلى براون في كتابهما عن: (الألفاظ والدلالات وتعلم اللغة)، حيث يقولان: إن

(1) المصطلح العلمي عند العرب- تاريخه ومصادره، 48، ولغة العلم في الإسلام، ص14، والعربية لغة العلم والتكنولوجيا، ص14.

(2) المصطلح العلمي عند العرب- تاريخه ومصادره ونظريته، 48، وانظر: مفاتيح العلوم (فلوتن)، 5.

(3) مفاتيح العلوم (فلوتن)، 5.

توسيع المعاجم والإضافة إلى مادتها اللغوية، يتم عن طريق مجموعة من التقنيات، يمكن إجمالها فيما يلي:

- 1- الاقتراض اللغوي (Borrowing)، يقول: "إن اللغات كلها تقترض كلمات من لغات أخرى، بعضها من بعض"⁽¹⁾.
- 2- الوضع (النحت) "coinage"، يقول: "إن كل لغة تملك عددًا من الكلمات لم تأت عن طريق الاقتراض من لغات أخرى، لكنها (أى هذه اللغات) تنمى نفسها، أو ما يمكن أن يسمى بالكلمات الوطنية"⁽²⁾.
- 3- النقل أو التحويل (shift).
- 4- التبديل اللفظي⁽³⁾ (conversion).

كل هذه التقنيات الأربعة أجملها الخوارزمي في اثنتين، هما: الاختراع والتعريب، ولا يصح أن يفهم من عبارة الخوارزمي (اخترعت) إلا ما سبق التعبير عنه في لغة ابن فارس والسيوطي بعبارة (انتقل بها الإسلام)، وهو المفهوم القديم لمصطلح التطور الدلالي في الدراسات اللسانية المعاصرة (semantic change)⁽⁴⁾.

أضف إلى ذلك أن التعبير بلفظ الأوضاع يكاد يتفق تمامًا، أو يرادف المفهوم من لفظ الاصطلاح، وأنه من الظاهر أن هذه الأوضاع أو المواضع أو الاصطلاحات تتغير بتغير المجال المعرفي الذي ترد فيه.

وهو الأمر الشائع المنتشر في التعريفات التي دونت لكلمة اصطلاح أو مصطلح في التراث اللغوي العربي، ولا سيما في باب المعاجم التي ندرسها هنا، من مثل ما ورد في التعريفات للجرجاني، وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي، والتوقيف للمناوي، والكليات للكفوي، والتعريفات والاصطلاحات لابن كمال باشا، وغيرهم⁽⁵⁾ من المعجميين الاصطلاحيين، فضلًا عن المعجميين أصحاب المعاجم اللغوية العامة⁽⁶⁾ حتى العصر الحديث.

(1) vocabulary, semantics and language education , p 175

Ibid , 175 (2)

Ibid, 179 (3)

(4) انظر: التطور اللغوي (مظاهرة وعلله وقوانينه)، 189، ومعجم المصطلحات اللغوية للبلعبيكي، 442.

(5) انظر: التعريفات للجرجاني / 44، وكشاف اصطلاحات الفنون (مصر) 217/4، والتوقيف (الداية) / 68، والكليات / 934، والتعريفات واصطلاحات / 9 ب س 1-2.

(6) انظر: الوسيط (صلح) / 540/1، والمعجم العربي الأساسي / 744، وعلم المصطلح / 11، والمصطلحية / 18-19.

أمر آخر يجب التنبيه عليه، وهو أنه لا يصح أن يفهم من استخدام الخوارزمي للفعلين الماضيين (اخترعت/ وأعربت) أن ما حدث من تطور، أو نقل كان بطريق غير إرادى أو عفوى. بل على العكس من ذلك تمامًا؛ إذ ما أحدثه الإسلام في أمر إنشائه للمصطلحات قائم على التعمد والقصد والإرادة، لقد كان الإسلام بطوائف علمائه المختلفة المتمية إلى علوم متعددة أشبه شيء بالمجامع اللغوية أو الهيئات العلمية، التى عمدت وقصدت عند وجودها إلى خلع دلالات جديدة، أو وضعها، أو تعريبها على بعض الألفاظ التى تطلبتها حياة اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو علمية جديدة⁽¹⁾.

لقد كانت المصطلحات إذًا حصيلة جهد علمى ضخم سابق، قام به العلماء المسلمون، كل فى تخصصه ومجاله، وبات أمر اتفاق كل طائفة منهم على رموز لغوية يتعاطونها بينهم، ويتواصلون بها فى شرح علومهم، مسألة منطقية لازمة، فنشأت المصطلحات التى صارت أدوات وآلات ومفاتيح لازمة لكل المشتغلين بالعلوم.

وفى ذلك ما يفسر لنا تواتر ظهور كلمات من مثل (مفاتيح، ومقاليد، وكشاف) فى عناوين معاجم المصطلحيات؛ مما يمثل إدراك هؤلاء المعجميين لفكرة الإضاءة التى يقوم بها ويحققها المصطلح.

نشأت العلوم، فظهرت المعاجم الخاصة التى تعرف ألفاظ تلك العلوم، ومن هنا فالقول بوجود وجود السمات التالية يصبح أمرًا ضروريًا ولازمًا:

1- ضرورة عدم التباين المصطلحى، بمعنى أنه لا يصح تصور وجود مشترك اصطلاحى على غرار المشترك اللغوى؛ لأن ذلك مفض إلى الخلط والاضطراب المعرفى، وليس لمثل ذلك تسعى العلوم.

وسوف نرى كيف تخلصت معاجم المصطلحيات العربية، وقضت على ما يمكن أن يمثل شيئًا من هذا التباين، عن طريق تحديد المجال المعرفى؛ إما عن طريق التقسيم الحقلى الموضوعى، أو عن طريق النص على المجال المعرفى قبل الشروع فى تعريف مصطلح ما فى الترتيب الهجائى.

وهذا الذى نفترضه من ضرورة أحادية الدلالة فى باب التعامل مع المصطلحات - أمر ثابت أصيل مستقر⁽²⁾ فى الدرس الدلالى.

(1) التطور اللغوى (مظاهره وعلله وقوانينه) / 189.

(2) علم المصطلح / 11-12.

2- الدقة والوضوح، وهاتان السمتان تتعلقان بالمصطلح، أيًا ما كان شكله (مفردًا أو مركبًا)، وبتعريفاته كذلك.

وإذا اتفقنا على أن "هدف المعجم المتخصص هو مساعدة القارئ على معرفة معاني لغة حقل معين من حقول المعرفة ومصطلحاته"⁽¹⁾ - أمكن فهم ضرورة الحرص على السمات المتقدمة. وإذا اتفقنا على ذلك للمرة الثانية أمكن أن نقرر أن علينا الإقرار بوجود علاقة متشابكة بين ما يعرف بالمفردات العامة (متن اللغة)، والمفردات المتخصصة (المصطلحات) على الأقل في بابي النقل والوضع⁽²⁾.

وفي هذا السياق يفهم قول هريرت بيشت وجنيفر دراسكا في كتابهما (مقدمة في المصطلحية): "لأن لغة الأغراض العامة لها كيان مستقل بذاته، أما لغة الأغراض الخاصة فيعتمد وجودها على لغة الأغراض العامة، وتدخل اللغتان في تفاعل ناشط، ففكرة الصيغ المصطلحية (Terminologzation) لعناصر من لغة الأغراض العامة الذى تكتسب به هذه العناصر مضمونًا خاصًا جدًا"⁽³⁾ هو ما يحدث في تخليق جانب مهم جدًا من المصطلحات.

وإذا كان أول معجم من معاجم المصطلحيات العربية يؤرخ لتماه بوفاة صانعه، وهو الخوارزمي الكاتب 378هـ- فليس معنى ذلك أن العربية لم تعرف اللغة الاصطلاحية أو الخاصة إلا مع نهايات القرن الرابع الهجرى، فذلك ما لا يقول به أحد.

المسألة في هذا الباب يمكن تصورها في أن بنية المصطلحات في العربية- عن طريق ما سبق أن ذكرناه- أخذت في الظهور مع نزول القرآن الكريم ومجيء التشريعات العلمية، وأخذت تتنامى مع ظهور المدارس العلمية في القرن الثانى الهجرى، ثم استقرارها ونضجها في القرن الثالث الهجرى، حتى ظهرت الحاجة إلى تدوين هذه المصطلحات بمعزل عن كتب العلوم المختلفة في معاجم مفردة لمصطلحات علم بعينه، أو في معاجم متعددة العلوم- فيما سميناها بمعاجم المصطلحيات- لدرجة يصح معها القول إن المعجم الاصطلاحى كان أداة حضارية مكنت مستعملها من أداء الكثير من الوظائف⁽⁴⁾، لكن عبر مسيرة طويلة ظهر فيها بالتدرج.

(1) علم اللغة وصناعة المعجم/ 46.

(2) انظر: المعاجم عبر الثقافات/ 224.

(3) مقدمة المصطلحية/ 16، وانظر: المصطلحات العلمية في اللغة العربية للشهابي/ 6.

(4) انظر: المعاجم عبر الثقافات/ 335.

أمر أخير نحب أن نقف أمامه قليلاً، وهو اعتبار كل علم مصطلحاً علوياً ينضوي أو يندرج تحته كلمات أو مصطلحات أخرى، بمعنى أن مصطلحية النحو يقصد بها مجموعة المصطلحات المنتمية للحقل العلمي (علم النحو)، وأن النحو في هذا السياق يعد مصطلحاً علوياً له سلطة حاكمة على مجموع المصطلحات المنضوية، أو المدرجة تحته، المسماة بالمصطلحات النحوية، وذلك أمر مهم للتغلب على بعض الظواهر السلبية التي يمكن أن تكون موجودة في داخل بنية المصطلحيات المختلفة في علاقتها بعضها مع بعض⁽¹⁾.

واللجوء إلى ذلك الاعتبار هو ما أشرنا إليه بعبارة ضرورة تحديد المجال المعرفي؛ حتى لا ينشأ اختلاط مفسد ضار بمفاهيم تلك العلوم التي وضعت المصطلحات من أجلها. وكثير من هذه المسائل المتعلقة بنشأة معاجم المصطلحيات العربية وبوسائلها في الشرح والتوضيح وبسمات هذه المصطلحات العلمية العربية وبطرق تكوينها وعلاقتها بالألفاظ في متن اللغة العامة— سوف يظهر ويتضح في تناولها في قابل الأبواب والفصول.

* * *

(1) المعاجم عبر الثقافات/ 227، وانظر: المعجم العلمي العربي المختص/ 6 وما بعدها، والمعجم العربي الجديد: المقدمة (فصل قضايا الإصلاح ومستلزمات لغة اعلم)/ 103 وما بعدها.